قال رحمه الله تعالى :

[القسم الثاني : ما كان مختصاً به دون أمته وقد يشاركه في بعضها الأنبياء ، وهذا هو المقصود الأول فلنذكره مرتباً على أبواب الفقه . (كتاب الإيمان) ؛ فمن ذلك أنه كان معصوماً في أقواله وأفعاله لا يجوز عليه التعمد ولا الخطأ الذي يتعلق بأداء الرسالة ولا بغيرها فيُقَرُّ عليه ، فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فلهذا قال كثير من العلماء : لم يكن له الاجتهاد لأنه قادر على النص . وقال آخرون : بل له أن يجتهد ولكن لا يجوز عليه الخطأ ، وقال آخرون : بل لا يقر عليه . فعلى الأقوال كلها هو واجب العصمة لا يتصوَّر استمرار الخطأ عليه ، بخلاف سائر أمته فإنه يجوز ذلك كله

على كلٍّ منهم منفرداً ، فأما إن اجتمعوا كلهم على قولٍ واحد فلا يجوز عليهم الخطأ كما تقدم] .

****

مرّ معنا تقسيم ابن كثير رحمه الله تعالى لخصائص النبي عليه الصلاة والسلام إلى قسمين : قسم يختص به لا يشاركه فيه غيره من الأنبياء ، وقسم يختص به لا يشاركه فيه أحد من أمته . والحديث هنا عن هذا القسم الثاني ، وقد يشاركه فيه الأنبياء مثل الخصوصية الأولى وهي عصمة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . فهناك خصائص للنبي عليه الصلاة والسلام لا تشاركه فيها أمته ولكن قد يشاركه فيها غيره من الأنبياء ، وهناك من الخصائص ما هي خاصة به عليه الصلاة والسلام لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء ، ولهذا يمكن أيضا أن تُقسَّم الخصائص إلى تقسيم آخر تقسيم ثلاثي وهو :

– أن من الخصائص ما هو خاص به عليه الصلاة والسلام لا يشاركه فيه أحد من الأنبياء ولا أحد من أمته .

– والثاني من الخصائص ما لا يشاركه فيه أحد من الأنبياء .

– والثالث ما لا يشاركه فيه أحد من أمته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

ثم ذكر رحمه الله تعالى أنه يرتب ذلك على ترتيب أبواب الفقه ، فبدأ أولاً بكتاب الإيمان ، والإيمان هو جامع للدين كله أصوله وفروعه ، عقائده وأعماله ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ — شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ))؛ فالإيمان بإطلاقه العام يشمل الدين كله ، يشمل العقيدة التي تكون في القلب ، ويشمل الأعمال التي تكون بالجوارح ، ويشمل الأقوال التي تكون باللسان ؛ ومراد المصنف رحمه الله تعالى بالإيمان هنا : أمور العقائد ، ومراده أيضاً بأمور العقائد : ما كان مختصاً بالنبي عليه الصلاة والسلام ، لأن أمور الاعتقاد ومباحث الاعتقاد عموماً ترجع إلى الإلهيات واليوم الآخر والنبوات ، والبحث هنا فيما يتعلق بالنبوات وبنبوة نبينا صلوات الله وسلامه عليه خاصة . فمن الخصوصية لنبينا عليه الصلاة والسلام أمور تتعلق بهذا الجانب ؛ جانب الإيمان به عليه الصلاة والسلام وما يجب

أن نعتقده نحوه ﷺ . فمما يجب أن نعتقده نحو نبينا عليه الصلاة والسلام : أنَّ الله ﷻ عصمه في أقواله وأفعاله صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله : ((**فمن ذلك أنه كان معصوماً في أقواله وأفعاله لا يجوز عليه التعمد**)) ؛ أما السهو والنسيان فهذا يقع .

((**ولا الخطأ الذي يتعلق بأداء الرسالة**)) ؛ لأن الله عصمه في البلاغ فلا يقع منه عليه الصلاة والسلام خطأ فيما يبلغه للناس من دين الله ﷻ سواءً ما كان من آيات القرآن التي تتنزل عليه ﷺ ، أو ما كان من بيانه لدين الله بسنته عليه الصلاة والسلام وأقواله ، فالله جلّ وعلا عصمه في ذلك .

((**ولا بغيرها** – يعني الأخطاء التي لا تتعلق بأداء الرسالة – **فيقر عليه**)) .

قال : ((**فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**)) وهذا من دلائل العصمة في البلاغ أنه عليه الصلاة والسلام كان كلامه الذي يبلغه صلوات الله وسلامه عليه هو وحي من الله ، فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما ينطق عن وحيٍ يوحى إليه من ربّ العالمين .

قال : ((**فلهذا قال كثير من العلماء : لم يكن له الاجتهاد**)) ؛ لأن كل أقاويله وبيانه لدين الله وحي ، وهذا هو حقيقة الرسالة ، لأن حقيقة الرسالة إبلاغ كلام المرسِل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور:٥٤] ، فالرسول مهمته أن يبلّغ كلام مرسله ، لا أن يُنشئ كلاماً من قِبل نفسه أو أن يأتي بشيء من قِبل نفسه ، ولهذا قول الله ﷻ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] أضاف القول الذي هو القرآن وهو وحي الله إلى الرسول بلقب الرسالة ممّا يُشعر أن الأمر إنما هو قول رسول ليس إنشاءً منه ، فهو على وجه البلاغ ليس على وجه الإنشاء .

قال : ((**لأنه قادر على النص**)) ؛ في كل حال من الأحوال من أمور الدين يبلغ بالنّص ، وكانوا أحياناً يسألونه عن المسألة فينتظر عليه الصلاة والسلام ثمّ يجيب ، مثل الحديث الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام : ((إِلَّا الدَّيْنَ سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنِفًا)) يعني قبل قليل، فبلاغاته أو بياناته عليه والصلاة والسلام لدين الله كلها وحي ، وهذه حقيقة الرسالة : إبلاغ كلام المرسِل .

قال : ((**فلهذا قال كثير من العلماء لم يكن له الاجتهاد لأنه قادر عن نص ، وقال آخرون : بل له أن يجتهد ولكن لا يجوز عليه الخطأ ، وقال آخرون : بل لا يقر عليه**)) ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

قال : ((**فعلى الأقوال كلها هو واجب العصمة لا يتصور استمرار الخطأ عليه ، بخلاف سائر الأمة فإنه يجوز ذلك كله على كل منهم منفرداً**)) ؛ كل واحد من الأمة منفرد يجوز عليه ذلك .

((**فأما إذا اجتمعوا كلهم على قول واحد فلا يجوز عليهم الخطأ**)) كما تقدم في الحديث : ((لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة)) وقد ذكر ذلك المصنف رحمه الله في جملة خصائص النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي إن كانت في الأصل لأمته إلا أنها إنما حصلت لأمته بفضل وبركة رسالته عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله :

[**ومن ذلك ما ذكره أبو العباس بن القاص أنه كُلِّف وحده من العلم ما كلف الناس بأجمعهم ، واستشهد البيهقي على ذلك بحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : " بينا أنا نائم إذ أُتيت بقدح فيه لبن فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ﷺ . قالوا : فما أوَّلت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم " . رواه مسلم**] .

****

ثم ذكر من خصائص نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ما نقله ((**عن أبي عباس بن القاص أنه ﷺ كُلف وحده من العلم ما كُلف الناس بأجمعهم**)) ؛ أي ما كُلف به الناس أجمع ، وذكر دليلاً لذلك ، وقد يُستدل لذلك بما في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا)) فهو أعلم خلق الله بالله ، فكل علم صحيح في دين الله وفيما تتحقق به سعادة في دنياه وأخراه فإن نبينا عليه الصلاة والسلام أوتيه على التمام والكمال ، وكل علم عند أي فردٍ من أفراد الأمة لم يكن متلقًى عنه ولم يكن مستمداً من علمه عليه الصلاة والسلام فهو غير صحيح ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) وفي لفظ ((مَنْ

أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) ، الله جل وعلا يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١] أي : لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر – لا تقولوا أي في العلوم ، ولا تفعلوا أي في الأعمال ، فإذا كانت العلوم التي يُقصد بها التقرب إلى الله ﷻ ليست مستمدة من العلم النبوي والهدي المحمدي فهي باطلة وغير صحيحة – أما أمور الدنيا فقد قال عليه الصلاة والسلام : ((أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ)) – وهذه الحقيقة كان عليه الصلاة والسلام يغرسها في القلوب كل جمعة إذا خطب الناس قال : ((أما بعد ؛ فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهُدى هدى محمد – وفي لفظ خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة)).

فجمع الله ﷻ لنبيه الكريم ﷺ العلوم ، والمراد بالعلوم : أي المقربة إلى الله ﷻ التي يُقصد بها نيل ثوابه جل وعلا ويُطلب بها أجره وثواب الدار الآخرة .

قال : ((**واستشهد البيهقي على ذلك بحديث ابن عمر**)) ؛ المصنف أحاله لمسلم وهو في الصحيحين .

((**عن رسول الله ﷺ قال : " بينا أنا نائم إذ أُتيت بقدح فيه لبن** – اللبن : الفطرة – **فشربت منه حتى إني لأرى الرِي يجري في أظفاري**)) ؛ بمعنى أن جسمه كله أخذ نصيبه تماماً كاملاً وافراً من هذا الرِي .

قال : ((**ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب . قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم**)) ؛ أوّل ﷺ ذلك بالعلم ، وهذا فيه إشارة إلى فضيلة عمر رضي الله عنه ومكانته في العلم ، وهو الذي وافق الوحي في مواطن عديدة.

وجاء في حديث آخر في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ. قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الدِّينَ)) .

إذا جمعتَ بين هذين الحديثين فهذا يدل على فضيلة عمر رضي الله عنه في العلم والعمل ، وهذه الفضيلة أيضاً ثابتة لعموم الخلفاء الراشدين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ)) وصفهم بصفتين : الراشدين المهديين ، وهاتان الصفتان تعني الصلاح في الجانبين : جانب العلم وجانب العمل ، فالراشد : الذي صلُح

عمله وهو ضد الغاوي ، والمهتدي : الذي صلح علمه وهو ضد الضال. فالراشدين المهديين الذين جمع الله لهم بين صلاح العلم وصلاح العمل ، ولهذا حثنا صلوات الله وسلامه عليه أن نأتسي بهم وأن نسير وفق سنتهم وهديهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

الشاهد من الحديث : أن النبي عليه الصلاة والسلام أول هذا اللبن الذي شرب منه في منامه حتى رأى الريّ يجري في أظفاره الشريفة صلوات الله وسلامه عليه بالعلم ؛ فهذا يستفاد منه أنه عليه الصلاة والسلام أخذ من العلم بالله وبدينه وبشرعه وأحكامه والأمر والنهي .. الخ النصيب الوافر والحظ الكامل ، فجمع الله ﷻ له العلم المقرب إلى الله كلّه ، فهو إمامٌ في ذلك . وكل علم يُقصد به التقرب إلى الله لا يكون متلقى من علمه عليه الصلاة والسلام فهو غير صحيح ، كما أنه كلُّ عمل يُقصد به التقرب إلى الله ﷻ لا يوافق عمله فهو عمل باطل ، ومن جاء بعلم لا يوافق علمه أو بعمل لا يوافق عمله فهو متقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام ، واقع فيما نهى الله عنه في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ . إذا ضممت إلى الآية الحديث الذي في مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ)) – فساد في الجانبين : العلم والعمل – والواجب على أفراد الأمة عندما يعلموا بهذه الخصيصة العظيمة المباركة لنبيهم عليه الصلاة والسلام أن تكون حياتهم كلها مجاهدة للنفس على تعلم علومه والاهتداء بأعماله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه كان يرى ما لا يرى الناس حوله ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : "هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، فقالت : عليه السلام يا رسول الله ، ترى ما لا نرى ؟!" وعنها في حديث الكسوف الذي في الصحيحين: " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" وقال البيهقي : أنا الحكم محمد بن علي بن دحيم : ثنا أحمد بن حازم الغفاري : ثنا عبيد الله بن موسى : أنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورِّق عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " قرأ رسول الله ﷺ: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} [الإنسان:١] حتى ختمها ، ثم قال :

إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدر أصبع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله " والله لوددت أني شجرة تعضد . ورواه ابن ماجه ، قال البيهقي : يقال إن قوله : "شجرة تعضد" من قول أبي ذر ، والله أعلم].

****

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**ومن ذلك**)) ؛ أي من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام .

((**أنه كان يرى ما لا يرى الناس حوله**)) ؛ وهذا شواهده كثيرة جداً في السنة ، يرى أشياء ومَن حوله من الناس لا يرونها ، مثل ما مرّ معنا في سورة النجم قال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) ﴾ ، فلما رأى عليه الصلاة والسلام جبريل في الأرض – لأنه رآه مرّتين : مرّة في السماء لما عُرج به ومرّة في الأرض – رآه في مكّة على صورته الحقيقية وقد سدّ الأفق وله ست مائة جناح وكان الناس الذين في الأرض في ذلك الوقت ينظرون إلى السماء ما منهم من رأى شيئا ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام وحده رأى ما لم يروه ، فهو عليه الصلاة والسلام من خصائصه أن الله يُمكّنه في أوقات أن يرى ما لا يراه الناس حوله .

ومن أمثلة ذلك : ((**ما جاء في الصحيح عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها : "هذا جبريل يقرأ عليك السلام** ")) ؛ جبريل أمام النبي عليه الصلاة والسلام ويراه وعائشة إلى جنبه لا تراه ، فيقول لها : هذا جبريل يقرأ عليك السلام .

((**قالت : عليه السلام ، يا رسول الله ترى ما لا نرى ؟!**)) ؛ وهذا شاهد ، فهو عليه الصلاة والسلام يرى جبريل وجبريل أيضاً يخاطبه ، فيراه ويسمع خطابه ، وعائشة رضي الله عنها إلى جنبه لا تراه ولا تسمع خطابه !! هذا الحديث مخرج في الصحيحين ، زاد البخاري : ((تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) يعني أن رسول الله ﷺ مما خُص به أنه يرى ما لا يرى من حوله ؛ فهو عليه الصلاة والسلام يمكنه الله ﷻ في أوقات فيرى ما لا يرى من حوله ، ويسمع أيضاً ما لا يسمع من حوله .

أيضا من عجيب الأخبار في هذا الباب ما كان في قصة صلاة الكسوف ؛ قال : ((**وعنها** – أي عن عائشة – **في حديث الكسوف الذي في الصحيحين " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**"))؛ والمصنف رحمه الله اختصر واقتصر في ذكر هذه القصة ، وإلا من يُطالع القصة في الصحيح فيها أمور عجيبة جداً، لأن الشّمس كُسُفت في حياة النبي عليه الصلاة والسلام مرّة واحدة ، فخرج عليه الصلاة والسلام وجمع الناس ودعاهم " الصلاة جامعة " وصلى بهم صلاة الكسوف .

وصلاة الكسوف معروفة ؛ وهي ركعتان في كل ركعة ركوعان ، بمعنى أن الإمام يكبر ويقرأ الفاتحة ثم يقرأ طويلاً ما تيسر له من القرآن ، ثم يركع ، ويرفع من الركوع قائلاً سمع الله لمن حمده ثم يبدأ يقرأ الفاتحة ويقرأ بعدها ما تيسر له من القرآن ، ثم يركع ، ثم يرفع ، ثم يسجد سجدتين ثم يقوم ويأتي بركعة بركوعين .

وهنا أخرج عن الموضوع قليلاً لأذكر لكم قصة طريفة وفيها فائدة ؛ حدثني بها صاحب القصة يقول : عندما تخرجت من الجامعة ودراستي في العلوم الدنيوية – إما رياضيات أو أحياء ، لكن رجل ملتحي ومتدين – فعُيِّنت في قرية من القرى ، وفي الأيام الأولى التي عُينت فيها حصل كسوف وكان إمام المنطقة والذي يصلي الجمعة بالناس مسافر في ذاك اليوم ، ففوجئت الناس يطرقون عليّ الباب ويقولون الآن كسوف والإمام مسافر وما فيه إلا أنت تصلي فينا – يقول – كل المراجع التي معي تتعلق بتخصصي ولا عندي أي كتاب في الفقه ولا أذكر صفة صلاة الكسوف ، حاولت أتذكر كيف تكون ما تذكرت ، قلت لهم : أنا ما أستطيع . قالوا أبداً ما يمكن ما يوجد إلا أنت والجماعة كلهم الآن في المسجد وينتظرونك فتوكل على الله وتعال صلي بنا ، فقررت أن أتوضأ وأذهب للمسجد وأتوسم في أي واحد منهم وأُصر عليه وأقدِّمه وأخرج من الموقف ، فمجرد ما دخلت مع باب المسجد الناس كلهم قاموا صفوف قالوا جاء الشيخ جاء الشيخ ، فوجدت أني مضطر ما عندي خيار الآن ، فذهبت ووقفت مكان الإمام وكبرت سبع تكبيرات والركعة الثانية خمس تكبيرات وسلَّمت ، فإذا بشايب خلفي قال " ما شاء الله عيد هذا !! " الناس في كسوف ، وهذا يصلي بهم صلاة العيد .

الشاهد من القصة : مثل هذه العبادات ينبغي أن تكون حاضرة في الأذهان ومعروفة الأحكام وإذا فوجئ بها الإنسان في أي مكان يؤدي العبادة المشروعة المطلوبة منه في الوقت المناسب على الصفة التي شرعها الله ﷻ . أما إذا لم يكن يتعلم ولا يتفقه يقع في مثل هذا الخطأ ويقع أيضاً في الخطأ الآخر الذي حدثني به أحد الأشخاص في منطقة من المناطق يقول صلَّوا على الجنازة ركعتين بسجود وركوع ، يعرفون أنه يُصلَّى عليها لكنهم ما تعلموا ، فتعلُّم مثل هذه الأحكام وخاصة التي ما تمر إلا بين وقت وآخر أو وقت طويل ، فإذا لم تكن هذه الأحكام حاضرة أو الإنسان على علم بها يقع في مثل هذا الخطأ .

قال ابن كثير: ((**وعنها في حديث الكسوف الذي في الصحيحين**)) ؛ النبي عليه الصلاة والسلام في صلاته تلك صلاة الكسوف ، فعل أمراً ما كان الصحابة يعهدون منه فعله في صلاته – رأوه وهو قائم يصلي تقدَّم ومشى إلى الأمام قليلا كأنه يريد أن يأخذ شيئا ثم بعدها بقليل أيضاً وجدوه يرجع إلى الوراء – واستغربوا من هذا الأمر ، وبمجرد أن انتهى من الصلاة سألوه ، قالوا : يا رسول الله رأيناك فعلت في صلاتك شيئاً ما رأيناك تفعله . فقال : ((رأيت الجنة والنار)) ، يعني حقيقةً رأيت الجنة والنار ، صفوف خلفه يصلُّون وراءه ﷺ ورأوه يتقدم يمد يده ورأوه يتأخر ؛ لما تقدم رأى الجنة قال : ((تقدمت لآخذ عنقودا من عناقيد الجنة ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)) . الجنة كانت أمامه وهم يصلون وربنا على كل شيء قدير ﷻ ، ولما رجع قال ((رأيت النار)) ثم أخذ يحدثهم عليه الصلاة والسلام بما رأى ، فذكر أشياء رآها في الجنة وأشياء رآها في النار .

مما رآه في النار قال : ((رأيت عمرو ابن لُحي يجر قصبته في النار)) ، وقال : ((رأيت امرأة في النار دخلت النار في هرّة حبستها لا هي التي أطعمتها ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض)) .

وذكر عليه الصلاة والسلام أشياء رآها في الجنة صلوات الله وسلامه عليه وأشياء رآها في النار ، والصحابة وراءه يصلُّون ما رأوا شيئا لا رأوا الجنة ولا رأوا النار ؛ وهذا من الشواهد و من الدلائل لقول ابن كثير في خصائص النبي ((أنه يرى ما لا يرون)) أي يمكنه الله ﷻ في أوقات أن يرى أشياء ما يراها من حوله .

قال : ((**وقال البيهقي وساق الإسناد عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر**)) ؛ مورق لم يسمع من أبي ذر وهذه علة في الحديث لكن له شواهد ولهذا أورده الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٢٣)

((**عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ** : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] **حتى ختمها ، ثم قال : إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون**)) ؛ وهذا تصريح بهذه الخصوصية له عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**أطت السماء وحُق لها أن تئط**)) ؛ الأطيط : صوت يكون عن ثقل ، مثل أطيط الرحل ، فأطت السماء أي ثقلت بمن عليها من الملائكة ، وحُق لها أن تئط لكثرة أعداد الملائكة الذين عليها .

((**ما فيها موضع قدر أصبع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله**)) ؛ هذا فيه دليل على كثرة الملائكة الكاثرة ، ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ ﴾ [النجم:٢٦] هذا تكثير . ولما عُرج به عليه الصلاة والسلام قال : ((ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ)) ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] .

قال : ((**والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصُعدات تجأرون إلى الله**)) ؛ يعني لكم جُآر صوت تناجون الله وتلحُّون عليه وتطلبون منه ، وهذا يذكره عليه الصلاة والسلام لأمته على وجه النِذارة والتخويف وأن ينتبه الإنسان وأن يعرف أن أمامه جنة ونار وحساب وعقاب وأهوال وشدائد وأن لا يمضي في هذه الحياة هكذا سادراً لاهياً غافلاً معرضاً إلى أن يفاجئه الموت وهو على الضياع ثم يندم ولا يفيده الندم ، فهذه موقظات ومنبهات إذا تأملها المسلم أخذته مأخذاً آخر فيه الجد وفيه العزم وفيه الاجتهاد في الطاعة والبعد عن معصية الله ﷻ .

قال : ((**والله لوددت أني شجرة تعضد**)) ؛ وهذا ليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام وإنما هو مدرج في الحديث .

قال ابن كثير رحمه الله : ((**ورواه ابن ماجه ، قال البيهقي : يقال إن قوله " شجرة تعضد" من قول أبي ذر**)) ؛ وهذا هو الصحيح أنَّ قوله : "والله لوددت أني شجرة تعضد " هذا مدرج وليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام وهو من كلام أبي ذر ، وقد جاء الحديث في المسند للإمام أحمد صريحاً بذلك ، فيه التصريح أن هذا من قول أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أن الله أمره أن يختار الآخرة على الأولى ، وكان يحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما مُتع به المترفون من أهل الدنيا ، ودليله من الكتاب العزيز ظاهر] .

****

قال : ((**ومن ذلك**)) ؛ أي من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام .

((**أن الله أمره أن يختار الآخرة على الأولى**)) ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى:٤-٥] فأمره الله جل وعلا أن يختار الآخرة على الأولى ، واختار ذلك عليه الصلاة والسلام .

((**وكان يحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما مُتِع به المترفون من أهل الدنيا ، ودليله من الكتاب العزيز ظاهر**)) أي في مواضع ومن ذلك : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه:١٣١] فنهاه الله ﷻ أن يمُد عينيه إلى ما مُتِع به المترفون من أهل الدنيا صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه لم يكن له تعلُّم الشعر ، قال الله تعالى : {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ} [يس:٦٩] ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ما أبالي ما أتيت إن شربت ترياقاً أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي)) رواه أبو داود ، فلهذا قال أصحابنا : إنه كان يحرم عليه تعلم الشعر] .

****

قال ((**ومن ذلك أنه لم يكن له تعلم الشعر ، قال الله تعالى** : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩]))؛ أي من خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه ما ينبغي له تعلم الشعر ولم يكن له تعلم الشعر صلوات الله وسلامه عليه .

ذكر هذا الدليل من القرآن ثم ذكر دليلاً من السنة وهو حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ((**سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما أبالي ما أتيت إن أنا شربت ترياقاً أو تعلقتُ تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي**)) ؛ وهذا الأسلوب يُؤتى به في بيان أمر محرم أو بيان أمر خاطئ أو أمر مخالف فيبين عندما يُضم إلى مخالفات أخرى ، بمعنى أن مستواه بمستوى هذه المخالفات فيُذكر معهما ويُقرن بها ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يبين أنه لا يقول الشعر من قبَل نفسه كما أنه لا يعلق التميمة وكما أنه لا يشرب ترياقاً فقال : ((ما أبالي ما أتيت إن أنا شربت ترياقاً أو تعلقتُ تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي)) ، أي أنها كلها أمور لا تقع ولا تكون منه . وقوله ((شربت ترياقاً)) عُلِّق عليها في بعض النسخ : " الترياق بكسرٍ فسكون أنواع ، بعضه يشتمل على شيء من لحوم الأفاعي وهذا هو الذي حرمه ، فإذا لم يكن منه من لحوم الأفاعي فلا بأس بتناوله ".

والحديث رواه أبو داود في سننه وفيه عبد الرحمن ابن رافع التنوخي. قال البخاري : في حديثه مناكير. وقال الحافظ ضعيف . فهذا الحديث بهذا الإسناد الذي عند أبي داود فيه هذه العلة .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**فلهذا قال أصحابنا : إنه كان يحرُم عليه تعلم الشعر**)) ؛ فإذاً من خصائصه ﷺ أنه ما ينبغي له تعلم الشعر .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه لم يكن يحسن الكتابة ، قالوا : وكان يحرم عليه ذلك ، قال الله تعالى : {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيل } [الأعراف:١٥٧] ، **وقال تعالى : { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }** [العنكبوت:٤٨] . **وقد زعم بعضهم أنه ﷺ لم يمت حتى تعلم الكتابة ، وهذا قول لا دليل عليه فهو مردود ، إلا ما رواه البيهقي من حديث أبي عقيل يحيى بن**

المتوكل عن مجالد عن عون بن عبد الله عن أبيه أنه قال : لم يمت رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ . قال مجالد : فذكرتُ ذلك للشعبي فقال : قد صدق ، سمعتُ من أصحابنا يذكرون ذلك . يحيى هذا ضعيف ، ومجالد فيه كلام . وهكذا ادَّعى بعض علماء المغرب أنه ﷺ كتب يوم صلح الحديبية، فأُنكر ذلك عليه أشد الإنكار وتُبُرِّئ من قائله على رؤوس المنابر ، وعملوا فيه الأشعار ، وقد غرَّه في ذلك ما جاء في بعض روايات البخاري : " فأخذ رسول الله ﷺ فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله " ، وقد عُلم أن المقيد يقضي على المطلق ، ففي الرواية الأخرى : " فأمر علياً فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ﷺ "]

****

قال : ((**ومن ذلك**)) ؛ أي من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام .

((**أنه لم يكن يحسن الكتابة ، قالوا : قد كان يحرم عليه ذلك**)) ؛ ذكر دليلين من القرآن وهما :

قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٧] الأمي : الذي لا يقرأ ولا يكتب.

والدليل الآخر قال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت:٤٨] لا يتلو ولا يخط ، وهذا بمعنى أمِّي ؛ ففي الآية الأولى قال : ﴿ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ أي : الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وفي الثانية صُرح بالأمرين لا تتلو ولا تخُط ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ ؛ فهو عليه الصلاة والسلام ما كان يُحسن الكتابة ، ولما جاءه جبريل في الغار أول الأمر وقال له : اقرأ قال : ما أنا بقارئ.

قال : ((**وقد زعم بعضهم أنه ﷺ لم يمت حتى تعلم الكتابة**)) ؛ لكن هذا قول مرسل ليس عليه دليل والأمر باقي على أصله أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يكتب ولا يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يُخرَج عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح وصريح .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : ((**وهذا قول لا دليل عليه ؛ فهو مردود**)) .

ثم ذكر دليلاً وضعَّفه رحمه الله فلا يكون صالحاً للاستشهاد به على أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يمت حتى تعلم الكتابة وهو ((**ما رواه البيهقي من حديث أبي عقيل يحيى بن المتوكل ، عن مجالد ، عن عون ابن عبد الله** ابن عتبة ابن مسعود **عن أبيه قال** : "**لم يمت رسول الله ﷺحتى كتب وقرأ** " ، **قال مجالد** : **فذكرت ذلك للشعبي فقال** : **قد صدق ، سمعت من أصحابنا يذكرون ذلك**)) .

قال ابن كثير : ((**يحيى بن المتوكل هذا ضعيف ، ومجالد فيه كلام**)) ؛ فهاتان علتان ، وأيضا ثالثة وهي : أن أبو عون عبد الله ابن عتبة من كبار التابعين فهو مرسَل ؛ فهذه ثلاث علل ، فالحديث ضعيف والأمر باقي على أصله وهو أنه عليه الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب .

قال : ((**وهكذا ادَّعى بعض علماء المغرب**)) ؛ يشير إلى أبي وليد الباجي الأندلسي كما ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة أبي الوليد الباجي الأندلسي أنه قال :

((**أنه ﷺكتب يوم صلح الحديبية ، فأُنكر عليه ذلك أشد الإنكار وتُبرئ من قائله على رؤوس المنابر ، وعملوا فيه الأشعار**)) ؛ يعني ينكرون عليه إنكاراً شديداً في الخطب وفي الشعر قولاً ونثرا .

وسبب الخطأ الذي وقع فيه أبو الوليد الباجي : أنه ((**غرَّه ما جاء في بعض روايات البخاري " فأخذ رسول الله ﷺ فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله**")) فمن هذه الرواية أخذ أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب ، ولكن فاته ((**أن المقيد يقضي على المطلق**)) .

((**ففي الرواية الأخرى** –وهي عند مسلم– : "**فأمر علياً فكتب**"))ففي هذا التنصيص على أن الذي كتب وباشر الكتابة هو علي ، والرواية التي نُسبت فيها الكتابة إلى النبي عليه الصلاة والسلام صحيحة ، لأن كتابة علي رضي الله عنه بأمره ﷺ فصحَّ أن تُنسب الكتابة إليه لأنه أمر بها ؛ مثل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] ؛ فنسب القراءة إليه ﷻ مع أن الذي قرأ جبريل ، لأن قراءة جبريل بأمر الله ﷻ .

فأبو الوليد الباجي لما وجد هذه الرواية ((فكتب)) – يعني محمد ﷺ – غرّه ذلك وفاته أن هناك روايات صحيحة ثابتة في التنصيص على أن الذي باشر الكتابة هو علي ، والروايات

التي فيها نُسبت الكتابة إلى النبي عليه الصلاة والسلام هي صحيحة باعتبار أنه الآمر عليه الصلاة والسلام لا الفاعل والمباشِر للكتابة .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره ، فقد تواترت عنه صلوات الله وسلامه عليه : " أن من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " . روي هذا الحديث من طريق نيِّف وثمانين صحابياً ، فهو في الصحيحين من حديث علي وأنس وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة ، وعند البخاري من رواية الزبير بن العوام وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمرو ولفظه : " بلغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " . وفي مسند أحمد : عن عثمان وابن عمر وأبي سعيد وواثلة بن الأسقع وزيد بن أرقم . وعند الترمذي عن ابن مسعود . ورواه ابن ماجه عن جابر وأبي قتادة . وقد صنف فيه جماعة من الحفاظ كإبراهيم الحربي ، ويحيى بن صاعد ، والطبراني ، والبزار وابن مندة ، وغيرهم من المتقدمين ، وابن الجوزي ، ويوسف بن خليل من المتأخرين . وصرَّح بتواتره ابن الصلاح والنووي وغيرهما من حفاظ الحديث ، وهو الحق ، فلهذا أجمع العلماء على كفر من كذب عليه متعمداً مستجيزاً لذلك . واختلفوا في المتعمد فقط ، فقال الشيخ أبو محمد : يكفُر أيضاً ، وخالفه الجمهور . ثم لو تاب فهل تقبل روايته ؟ على قولين : فأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو بكر الحميدي قالوا : لا تقبل ، لقوله ﷺ " إن كذباً علي ليس ككذب على أحد ، من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار " ، قالوا : ومعلوم أن من كذب على غيره فقد أثم وفسق ، وكذلك الكذب عليه ، لكن من تاب من الكذب على غيره يقبل بالإجماع ، فينبغي ألَّا تُقبل رواية من كذب عليه ، فرقاً بين الكذب عليه والكذب على غيره . وأما الجمهور فقالوا : تقبل روايته ، لأن قصارى ذلك أنه كفر ، ومن تاب من الكفر قبلت توبته وروايته ، وهذا هو الصحيح] .

****

ثم ذكر من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام ((**أن الكذب عليه ليس ككذب على غيره**)) ؛ وهذا صح في الحديث عنه أنه قال : ((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ

كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) ، وذكر رحمه الله تعالى أن هذا الحديث حديث متواتر عن النبي ﷺ . والعلماء عدُّوه من قبيل المتواتر اللفظي ، لأن المتواتر منه ما هو متواتر لفظي ومنه ما هو متواتر معنوي ، لكن هذا الحديث لفظه متواتر رواه عن النبي ﷺ –كما ذكر ابن كثير هنا – نيّف وثمانين صحابياً ، وذكر منهم رحمه الله تعالى ما يقرب من العشرين صحابياً ، عدّهم هنا رحمه الله وذكر ما في الصحيحين وفي البخاري وفي المسند والترمذي وابن ماجه . ثم أشار إلى أن جماعة من الحفاظ صنفوا أجزاء مفردة في هذا الحديث ، ذكر منهم : ((**إبراهيم الحربي ، ويحيى بن صاعد، والطبراني** –وجزءه مطبوع – **والبزار ، وابن مندة ، وغيرهم من المتقدمين**)) .

قال : ((**وابن الجوزي** – ابن الجوزي جمع طُرق هذا الحديث في أول كتابه الموضوعات – **ويوسف بن خليل من المتأخرين**)) .

قال : ((**وصرَّح بتواتره ابن الصلاح ، والنووي ، وغيرهما من حفاظ الحديث ، وهو الحق**)) ؛ وكما أشرت عدّه أهل العلم في جملة المتواتر اللفظي من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ثم لما قرَّر رحمه الله هذه الخصوصية لنبينا قال : ((**فلهذا أجمع العلماء على كفر من كذب عليه متعمداً مستجيزاً لذلك**)) ؛ أي مستحلاً لذلك ، فمن كذب على النبي عليه الصلاة والسلام مستحلاً الكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام فهذا كافر كفراً أكبر ناقل من ملة الإسلام ، إن كان يصلي لا يقبل الله منه صلاته ولا يقبل منه صيامه ولا يقبل منه عموم طاعاته لأن هذا الكفر ناقض لدينه ومحبط لعمله .

قال : ((**واختلفوا في المتعمد فقط**)) ؛ يعني يتعمد الكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه لا يستحل ذلك ولا يستجيزه ((**فقال الشيخ أبو محمد** – يعني ابن حزم – **يكفر أيضاً ، وخالفه الجمهور**)) .

قال : ((**ثم لو تاب فهل تقبل روايته ؟ على قولين**)) ؛ يعني رجل عُرف عنه الكذب على النبي عليه الصلاة والسلام ثم تاب من كذبه على رسول الله فهل تُقبل روايته أو لا ؟ على قولين :

١. ((**فأحمد ويحيى بن معين وأبو بكر الحميدي قالوا : لا تقبل ، لقوله ﷺ : " إن كذباً علي ليس ككذب على أحد من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " . قالوا : ومعلوم أن من كذب على غيره فقد أثم وفسق ، وكذلك الكذب عليه ، لكن من تاب من الكذب على غيره يقبل بالإجماع ، فينبغي أن لا تقبل رواية من كذب عليه ، فرقاً بين الكذب عليه والكذب على غيره**)) .

٢. ((**وأما الجمهور فقالوا : تُقبل روايته ، لأن قصارى ذلك أنه كفر ، ومن تاب من الكفر قُبِلت توبته وروايته ، وهذا هو الصحيح**)) .

على كلٍّ المسألة مثل ما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى فيها هذا الخلاف في حال من يكذب على رسول الله ﷺ ثم تاب هل تُقبل روايته أو لا ؟ ومن العلماء من يرون أن روايته لا تُقبل ، وهذا أيضاً مما يبين شدة خطورة الكذب على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه ليس كالكذب على أيٍّ أحد آخر فهو مختلف ؛ من كذب على غيره وفسق بهذا الكذب ثم تاب وأناب تُقبل روايته ، فيفرَّق من كان كذبه على رسول الله ، لأن الكذب على رسول الله ليس كالكذب على أي أحد آخر .

قال رحمه الله :

[**ومن ذلك أنه من رآه في المنام فقد رآه حقاً كما جاء في الحديث : " فإن الشيطان لا يتمثل بي " ، لكن بشرط أن يراه على صورته التي هي صورته في الحياة الدنيا ، كما رواه النسائي عن ابن عباس . واتفقوا أن من نقل عنه حديثاً في المنام أنه لا يُعمل به لعدم الضبط في رواية الرائي ، فإن المنام محلٌّ تضعف فيه الروح وضبطها . والله تعالى أعلم**] .

****

قال : ((**ومن ذلك**)) ؛ أي من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام .

((**أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً**)) ؛ وهذا جاء فيه أحاديث صحيحة ثابتة ، منها ما في الصحيحين عن غير واحد أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي)) ، وقوله : ((مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي)) ليس المعنى رأى جسده الذي هو موجود في القبر ، ولا أيضاً رأى روحه التي هي في أعلى الجنات ؛ وهذا

يبيّنه قوله : ((فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي)) يعني لا يمكن أن يأتي الشيطان متمثلاً بصورة النبي ﷺ الحقيقية ، لكن قد يأتي الشيطان بصورة أخرى غير صورة النبي عليه الصلاة والسلام ويقول إنه هو النبي ، ولهذا كان من طريقة الصحابة والتابعين إذا جاءهم شخص وقال رأيت النبي ﷺ في المنام يقولون له : صِف لنا من رأيت .

ونقل هنا ابن كثير رحمه الله قال : ((**لكن بشرط أن يراه على صورته التي هي صورته في الحياة الدنيا ، كما رواه النسائي عن ابن عباس**)) ؛ والحديث في شمائل الترمذي وفي مسند الإمام أحمد عن يزيد الفارسي وكان يكتب المصاحف ((جاء إلى ابن عباس وقال له : إني رأيت النبي ﷺ في المنام . قال : صف لي من رأيت ؟ فلما وصف له قال : لو كنت معنا ما زدت على هذا الوصف)) يعني أن الوصف مطابق .

وأيضاً جاء نحو ذلك ما رواه إسماعيل القاضي عن أيوب قال : ((كان ابن سيرين إذا قصّ عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ في المنام قال : صف لي من رأيت)) . وهذه تحسم الخلل في هذا الباب ، لأن كثير من الناس يدّعي أنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام .

أحد العوام مرّة جاء إلى أحد المشايخ وقال : يا شيخ أنا رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام ، قال له : صف لي من رأيت . قال : "رأيت رجل حليق وعليه كرفتة" ، هذا من يكون ؟! هذا شيطان ما فيه كلام .

فالذي يكون رأى النبي ﷺ في المنام حقاً هو من رآه بصفته التي كان عليها عليه الصلاة والسلام في الحياة الدنيا ، أما أن يراه بصفة غير صفته عليه الصلاة والسلام فهذا في الحقيقة ما رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان إذا جاءهم الشخص وقال : رأيت النبي ﷺ في المنام يقول : "صف لي من رأيت " فإذا كانت الصفة مطابقة فإنه يكون قد رآه ؛ هذه واحدة .

الثانية وهي مهمة جداً ونبَّه عليها ابن كثير رحمه الله تعالى قال : ((**واتفقوا أن من نقل عنه حديثاً في المنام لا يُعمل به**)) ؛ أي أنَّ المنامات لا يبنى عليها أحكام أو عقائد ، مثل ما قال العلماء رحمهم الله: " الرؤية المنامية تكون للبشارة والنذارة ، أما تقرير الأحكام فلا " ، ما يمكن أن يقرَّر حكم من منام ، مثل أن يبنى عمل أو عبادة أو ذكر أوعقيدة أو غير ذلك على رؤية منامية فهذا لا يمكن إطلاقاً ؛ فالرؤية المنامية تكون للبشارة ؛ إذا رأى الإنسان النبي

عليه الصلاة والسلام في أمور تُفرح القلب وتبهج النفس وتسِر الخاطر فهذا يدخل في مقام البشارة ، وتكون للنذارة ؛ قد يكون رأى النبي عليه الصلاة والسلام في مقام إنذار من أمر أو مخالفة أو نحو ذلك ، أما لتقرير الأحكام فلا . وهذا الباب انزلق فيه كثير من الطرقية انزلاقاً شديداً وأصبحوا يثبتون أشياء في كتبهم وأذكار وعبادات وأعمال وأوراد .... الخ وإذا سألت على ماذا يبنون ذلك ؟ على رؤى منامية "رأيت في المنام أو شيخي رأى في المنام" ، وتجدهم ضيعوا السنن واشتغلوا بالبدع ودخل الشيطان عليهم من هذا الطريق وأبعدهم عن السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وأوقعهم في أمور محدثات .

مرة رأيت كتاب من كتب الطرقية فيه أذكار منكرة ومستهجنة وأيضاً فيها توسلات شركية وفيها ألفاظ ركيكة جداً وضعيفة ، وقلت في نفسي من يمكن يقبل أن يذكر الله بهذا الكتاب !! فأخذت أقلِّب وأنظر في الكتاب فلما وصلتُ في آخره قال المؤلف : " لما فرغتُ من جمع هذا الكتاب وإعداده ترددتُ في نشره ، فجاءني النبي ﷺ في المنام وقال : يا فلان لماذا هذا التردد !! بادر في نشره ، وجاءني أبو بكر وجاءني عمر وجاءني عثمان وجاءني علي كلهم قالوا بادر في نشره ؛ فوجدت أنني مضطر أن أنشر الكتاب ، لأنهم كلهم أصرُّوا عليَّ أن أنشر الكتاب " والجهال مساكين عندما يقرؤون آخر الكتاب أن النبي ﷺ جاءه في المنام وأبو بكر وعمر وعثمان وكلهم ألحُّوا عليه وأصروا والرجل كان متردد ولا كان عنده نية أصلاً أن ينشر الكتاب لكن أمام الإصرار الرجل طبع الكتاب ؛ يأخذوه مأخذ المسلَّمات ، هذا عندهم متفق عليه !! هذا جاوز القنطرة !! . وكثير من الخرافة تنتشر عند العوام وتروج بمثل هذا الطريق ، والمعافي من عافاه الله ﷻ .

وأيضاً – وهي أشد من ذلك – دعوى بعض الناس خاصة أصحاب الطرق أنه يراه يقظة ، ويذكرون من هذا القبيل قصص غريبة وعجيبة جدا ويُستغرب أن يوجد من يُصدق مثل هذه القصص . من ذلك : أحد الفقهاء كان يتكلم في مسألة من المسائل وعنده من أحد شيوخ الطرق ممن لا علم له بدين الله ولا فقه ولا معرفة بأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فتكلم هذا الفقيه العالم بما آتاه الله من علم وفهم وبصيرة في دين الله وذكر حديثاً ، فقال له هذا الشيخ : الحديث ضعيف – وهو ليس من أصحاب الصناعة ولا من أهل الشأن ولا له معرفة بهذا – قال له : وما يدريك ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ واقف عند رأسك يقول لي

الحديث ضعيف . فمثل هذه الأمور يعني توجد بكثرة عند أصحاب الطرق ، وفعلاً لو سُلِّم لهم زمام الدين بهذه الطريقة ضاع الدين جملةً وتفصيلا ، وأصبحت أمور الدين في ضياع تام ، لكن الله ﷻ حفظ الدين بالروايات وبالأسانيد وبرجالات العلم وحفَّاظ السنة وكتب الحديث. ومثل هذه الخرافة تهدر كل جهود أئمة الحديث وكل جهود أهل العلم في حفظ سنة النبي ﷺ ويدَّعي الدَعِيّ من هؤلاء أن معرفة الصحيح أو الضعيف بمثل هذه الطرق .
فالشاهد مثل هذه المسالك كلها مسالك غير صحيحة ولا يمكن أن يستفاد منها علم أو يبنى عليها حكم شرعي إطلاقاً كما بيَّن ذلك أهل العلم رحمهم الله تعالى .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك ما ذكره الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه الكبير عن أبي العباس بن القاص في قوله تعالى : {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:٦٥] قال أبو العباس : وليس كذلك غيره حتى يموت ، لقوله تعالى : {ومن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } [البقرة:٢١٧] قال البيهقي : "كذا قال أبو العباس ، وذهب غيره إلى أن المراد بهذا الخطاب غير النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم المطلق محمول على المقيد" انتهى كلامه . قلت : وهذا الفرع لم يكن إلى ذكره حاجة لعدم الفائدة منه ، وما كان ينبغي أن نذكره لولا ما قد يتوهمَ من إسقاطه إسقاط غيره مما ذكروه ، وإلا فالضرب عن مثل هذا صفحاً أولى ، والله أعلم] .

****

ثم ذكر رحمه الله هذا الفرع وفي الآخر أشار إلى أن الأولى ضرب الصفح عنه وعدم إيراد مثل ذلك رحمه الله تعالى.

قال : ((**ومن ذلك ما ذكره الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه الكبير عن أبي العباس ابن القاص في قوله تعالى :** ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥] **قال أبو العباس : وليس كذلك غيره حتى يموت**)) يعني غيره إذا وقع في ذلك يحبط عمله إذا مات على الشرك ، وأما إذا رجع فإنَّ أعماله لا تكون باطلة ، ولكن هذا التقرير أيضاً فيه ما فيه ، لأن الشرك في حد ذاته محبطٌ للأعمال بمجرد وقوع الإنسان فيه ، ولا يعني ذلك أن التوبة ممنوعة

في حقه ، بل من تاب تابَ الله عليه من الشرك أو من غيره ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣] ، وليس هذا معارضاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء:٤٨] ؛ لأن قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ في حق من مات على ذلك ، أما قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ هذا في حق من تاب ، بدليل قوله : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ﴾ .

وهذه الآية فيها أشد التحذير من الشرك ، قال الله لنبيه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه لم يكن له خائنة الأعين ، أي أنه لم يكن له أن يومئ بطرْفه خلاف ما يظهره كلامه ، فيكون من باب اللمز ، ومستند هذا قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح حين كان قد أهدر ﷺ دمه يوم الفتح في جملة ما أهدر من الدماء ، فلما جاء به أخوه من الرضاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : يا رسول الله بايعه ، فتوقف ﷺ رجاء أن يقوم إليه رجل فيقتله ، ثم بايعه ، ثم قال لأصحابه : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد أمسكت يدي فيقتله ؟! فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا ، فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين] .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الخصائص التي تتعلق بكتاب الإيمان بأنه عليه الصلاة والسلام ((**لم يكن له خائنة الأعين**)) أي أنه لم يكن له أن يومئ بطرفه خلاف ما يظهره كلامه فيكون من باب اللمز .

قال : ((**ومستند ذلك قصة عبد الله بن سعد بن أبي السرح حين كان قد أهدر ﷺ دمه يوم الفتح في جملة ما أهدر من الدماء ، فلما جاء به أخوه من الرضاعة عثمان بن عفان**

ﷺ **فقال : يا رسول الله بايعه ، فتوقف ﷺ رجاء أن يقوم إليه رجل فيقتله ، ثم بايعه** عليه الصلاة والسلام ، **ثم** –بعد المبايعة– **قال لأصحابه: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد أمسكت يدي فيقتله ؟! فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا))** ؛ يعني هلا أشرت إلينا بعينك إشارة نفهم منها هذا المعنى ؟

قال: ((**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**)) فهذا من الخصائص التي هي مشتركة بينه ﷺ وبين عموم الأنبياء .

وبهذا يكون انتهى ما جمعه المصنف رحمه الله تعالى من خصائص تتعلق بهذا القسم (كتاب الإيمان) وبعده شرع فيما يتعلق بكتاب الطهارة فقال رحمه الله :